الترتيب المطلق
لحروف القرآن الكريم وكلماته

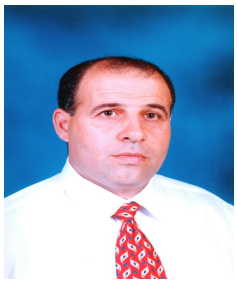

المهندس عدنان الرفاعي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

إنَّ كون القرآن الكريم قول الله تعالى ، وبالتالي صياغة لغويّة مطلقة في اللغة الفطريّة للمعاني التي يعلمها الله تعالى علماً مطلقاً ، يقتضي عدم وجود حرفٍ زائدٍ (أو ناقص) على المعنى الذي تحمله الصورة القرآنيّة .. وقد رأينا في عرضنا للمعجزات العدديّة كيف أنّ الحروف المرسومة في النصِّ القرآنيِّ ، وبهويّتها كحروفٍ لكلٍّ منها دلالاته التي تميّزه عن غيره ، رأينا أنّه لا يمكن حذف حرفٍ من كتاب الله تعالى ، أو زيادة حـــرف إلى كتاب الله تعالى ، أو تبديل حرفٍ بحرف في كتاب الله تعالى ..

وسنتعرّض الآن إلى مجموعة من الأمثلة ، لنرى كيف أنَّ الحرف القرآني (بهويّته التي تميّزه عن غيره من الحروف) يدخلُ في معادلة التصوير المطلق للمعنى الذي تحمله العبارة القرآنيّة ، وأنّه لا يزيد ولا ينقص عن المعنى الذي تحمله الصورة القرآنيّة ، والذي يعلمه الله تعالى علماً مطلقاً صاغه في عبارات لغويّة صياغةً مطلقة ..

في مسألة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام وعصيان إبليس ، وردت الصورتان القرآنيّتان التاليتان ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢]

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص : ٧٥]

ولنقارن بين العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ في الصورة الأولى ، وبين العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ في الصورة الثانية ..

إنَّ قراءة العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ قراءةً سطحيّةً دون الوقوف على حقيقة دلالاتها ، تجعل القارئ يتوهّم بأنَّ الله تعالى يسأل إبليس عمّا منعه من ترك السجود ، وكأنَّ المطلوب هو عدم السجود ، وهذا يُناقض حقيقة الأمر ، ويناقض العبارة الثانية ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ .. ولذلك ذهب بعض المفسِّرين إلى القول إنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ هي كلمة زائدة ، وبذلك تكون العبارة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ موافقة تماماً للعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ..

وقال بعض المفسّرين إنّ هذا التكرار عبر ورود هاتين العبارتين هو لتصوير حقيقة امتناع إبليس عن السجود ، فلم يمنعه شيءٌ خارجٌ عن ذاته ، لا بالتأثير الخارجي (منعه من السجود بالقوّة مع وجود استعداد للسجود) ، ولا بالامتناع عن السجود نتيجة إقناع شيءٍ خارجٍ عن ذاته بعدم السجود .. فالعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ جاءت لتنفي أنَّه كان عنده الاستعداد للسجود ، ولكنَّ قوّة أقوى منه منعته عن ذلك ، فهو

ليس ممنوعاً عن السجود بسبب قوّة خارجيّة أقوى منه .. والعبارة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ جاءت لتنفي أنَّ إبليس امتنع عن السجود نتيجة أنَّ أحداً أقنعه بعدم السجود ، فهو ليس ممتنعاً عن السجود لإقناعه من الخارج .. فالعبارتان متكاملتان في تصوير حقيقة عدم سجود إبليس ، وأنَّه اختار عدم السجود بعيداً عن تأثيري (المنع الخارجي بالقوّة ، والامتناع بإقناع ذات أُخرى له بعدم السجود) ، فهو ليس ممنوعاً وليس ممتنعاً عن السجود بغير اختيار إرادته المتعلّقة بذاته ..

.. إنّ القول بأنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ هي كلمة زائدة ، هو قولٌ مردودٌ ، فقول الله تعالى مُطلق ، وبالتالي لا يحوي حشواً ولا لغواً كقول البشر ، فقول الله تعالى هو صياغةٌ مطلقةٌ لكلام الله تعالى ، وعدم إدراكهم لعمق هذه الصورة القرآنيّة لا يُعطيهم الحقَّ بزعم وجود حروفٍ زائدةٍ عن المعنى المحمول فيها ..

وسننظر إلى هذه العبارة القرآنيّة من منظار تعداد الحروف الذي بيّناه في النظريّة الأولى (المعجزة) لنرى كيف أنَّ الحرف القرآنيَّ المرسوم يرتبط ارتباطاً مطلقاً بالمعاني والصور التي تحملها عباراته القرآنيّة التي ينتمي إليها ، ولنرى كيف أنَّه لا يمكن للبشر الإحاطة بارتباطات العبارة القرآنيّة مع غيرها من العبارات القرآنيّة الأخرى ..

إنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ ﴾ تُناظرها صورةٌ أُخرى للمسألة ذاتها تصوِّر هذه المسألة من جانبٍ آخر في سورةٍ أُخرى ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .. وهذا التناظر ينعكس تناظراً بينهما في مجموعي حروفهما المرسومة ، فكلٌّ منهما مكوَّنٌ من (٢٠) حرفاً ..

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ ﴾ = ٢٠ حرفاً

﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ = ٢٠ حرفاً

والصورة القرآنيّة ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ هي جزءٌ من قولِ الله تعالى وخطابِه لإبليس ، وهي تناظر بشكلٍ تامٍّ الصورة القرآنيّة ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ في الآية التي تسبق مباشرة الآيةَ الكريمة الحاملة للصورة الأولى ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] ..

﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ = ١٤ حرفاً

﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ١٤ حرفاً

فالعبارة ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ هي ردٌّ على الواقع الذي تصوّره العبارة ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ..... والصورة القرآنيّة ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ هي ذاتها مُكوَّنة من صورتين متناظرتين تماماً ، كلٌّ منهما مكوَّنٌ من (٧) حروف ..

﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ = ٧ حروف ،،، ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ٧ حروف

فهذه الصورة القرآنيّة بركنيها المتناظرين تنطق فتقول : كيف لا تسجد ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وأنا الذي أمرك بالسجود ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ؟ .. بمعنى كيف لا تستجيب لأمر الله تعالى وأمر الله تعالى تنبغي الاستجابة له ؟ ..

وهكذا فالصورة القرآنيّة ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ على الرغم من ارتباطها بسياق الكلام السابق واللاحق لها ، فإنَّ لها إطارَها الخاصَّ من الاستقلاليّة عن العبارة التي تسبقها مباشرة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ .. بمعنى أنَّ المعنى مكتمل عند نهاية العبارة القرآنيّة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ أي قال ما منعك من السجود ، وتأتي العبارة التالية لها ﴿ أَلَّا

﴿ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لتبيّن وتفصّل وتضيفَ دلالات جديدة مفادها : كيف لا تسجد وأنا الذي يأمرك بالسجود ..

وممّا يقويِّ مذهبنا في تفسير هذه العبارات القرآنيّة هو التناظر بين الصورة القرآنيّة ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ التي يكتمل عندها المعنى ، وبين الصورة القرآنيّة ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ ﴾ في الآية ذاتها ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ ﴾ = ٩ حروف ،،، ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ ﴾ = ٩ حروف

وهكذا نرى أنَّ كلمة (لا) المضمرة في كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ ليست كلمةً زائدة ، ونرى أنّها محسوبة بشكلٍ مُطلق ، وأنّها لا تزيد ولا تنقص عن المعنى الذي يريده الله تعالى ، وأنّها تستمدّ مطلقها من صفات الله تعالى المنعكسة في قوله .. ولو نظرنا في المعادلات التالية التي هي جزءٌ من ارتباطات كلمة ﴿ أَلَّا ﴾ ، لرأينا جزءاً من ارتباطاتها المطلقة مع غيرها من الصور القرآنيّة ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ٢٣ حرفاً

﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾ = ٢٣ حرفاً

.....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ٢٣ حرفاً

﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦] = ٢٣ حرفاً

.....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ٢٣ حرفاً

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨] = ٢٣ حرفاً

.....

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ = ٢٣ حرفاً

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] = ٢٣ حرفاً

فعدم السجود وعدم الاستجابة لأمر الله تعالى (وهذا ما يصوّره الركن الأوّل في كلّ معادلة) ، يقابله – كما نرى – تكبّر إبليس والهبوط من الجنّة ومن رحمة الله تعالى مذؤوماً مدحوراً ..

❁ ❁ ❁

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ١٩ – ٢٢]

إنّنا نرى الملاحظات التالية :

١ – تكرّرت كلمة ﴿ وَلا ﴾ بين الظلمات والنور ، وبين الظلّ والحرور ، وبين الأحياء والأموات ، و لم ترد بين الأعمى والبصير ! ..

٢ – تكرّرت العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ﴾ مرّتين ! ..

٣ – في المقارنة بين الظلّ والحرور والأحياء والأموات تقدّم الأشرف على غيره ، وعُكسَت المسألة في المقارنة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور ! ..

٤ – تمّ مقابلة الأعمى بالبصير والظلّ بالحرور بلفظ المفرد ، وتمّ مقابلة الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وتمّ مقابلة الظلمات بالنور بلفظ الجمع في إحداها (الظلمات) والمفرد في الآخر (النور) ..

لننظر – من خلال هذه الملاحظات – إلى عظمة التصوير القرآني المطلق ، لنرى كيف أنَّ ورود الحروف والكلمات وترتيبها في العبارة القرآنيّة ، هو مطلق يتعلّق بقول الله تعالى المتعلّق بصفاته المطلقة ..

نحن نعرف أنَّ النور ينافي الظلمات وينقضها ، بمعنى أنَّ وجود النور يعني عدم وجود الظلمات .. فالظلمات ليست أكثر من دليلٍ على عدم وجود النور .. إذاً .. المنافاة بين النور والظلمات هي منافاة ذاتيّة ترتبط بماهيّة هاتين المسألتين ، حيث لا تشتركان بأيِّ ساحةٍ بينهما .. ولذلك نرى كلمة ﴿ وَلا ﴾ بينهما : ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ .. فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الظلمات والنور ، فلم يقل : (ولا الظلمات والنور) ، إنّما يقول : ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ... ما نعنيه أنَّ المقارنة هنا لا تضع الظلمات في مقابل النور ، أي ليست بين الظلمات والنور ، كالمقارنة في قولِه تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ ﴾ [الرعد : ١٦] .. عدم الاستواء والمقارنة في قولِه تعالى ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ، هي بين درجات الظلمات المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات النور المتفاوتة فيما بينها ..

وكذلك الأمر فإنَّ المنافاة بين الظلّ والحرور ، هي منافاة في الهُويّة والذاتيّة بينها ، حيث لا تشتركان بأيِّ شيءٍ بينهما ، ولذلك نرى كلمة ﴿ وَلا ﴾ بينهما .. ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الظلّ والحرور ، فلم يقل : (ولا الظلّ والحرور) ، إنّما يقول : ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. عدم الاستواء والمقارنة هنا هي بين درجات الظلّ المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات الحرور المتفاوتة فيما بينها ..

وكذلك الأحياء والأموات ، فإنَّ المنافاة – أيضاً – تكمن في ذاتيّة هاتين المسألتين ، فصفة الأحياء تتعلّق – هنا – بالحياة الإيمانيّة ، والأموات تتعلّق بالموت الإيماني كون الكلمة هي ﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ وليس (الموتى) ، فهاتان المسألتان المتقابلتان لا تشتركان بأيِّ أمرٍ بينهما .. ولذلك فالله تعالى لم يضع – هنا – مقارنةً بين الأحياء والأموات ، فلم يقل : (وما يستوي الأحياء والأموات) إنّما يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ .. عدم الاستواء والمقارنة هنا هي بين درجات الأحياء المتفاوتة فيما بينها ، وبين درجات الأموات المتفاوتة فيما بينها ..

وكذلك الأمر بالنسبة لمسألتي العمى والبصر كمسألتين مجرّدتين عن تعلّقهما بالأشخاص ، هما مسألتان متنافيتان تماماً .. أمّا كلمتي الأعمى والبصير فقد ترتبطان بالشخص ذاتِه ، أي قد يكون الشخصُ أعمى فيصبح بصيراً ، وقد تنعكس المسألة .. فالمنافاة هنا (بين الأعمى والبصير) ليست ذاتيّة ترتبط بماهيّة الشخص الموصوف ، إنّما هي منافاة من حيث الوصف ، ولذلك نرى عدم ورود كلمة ﴿ وَلَا ﴾ بين الأعمى والبصير .. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ .. فعدم الاستواء والمقارنة هنا بين الأعمى من جهة والبصير من جهةٍ أُخرى ..

إذاً الظلمات درجات لا تستوي فيما بينها ، والنور درجات لا تستوي فيما بينها ، والظلّ درجات لا تستوي فيما بينها ، والحرور درجات لا تستوي فيما بينها ، والأحياء درجات لا تستوي فيما بينها ، والأموات درجات لا تستوي فيما بينها .. ولذلك نرى ورود كلمة ﴿ وَلَا ﴾ فيما بينها .. صحيحٌ أنَّ الظلمات تقابل النور والظلّ يقابل الحرور والأحياء يقابلون الأموات ، ولكنَّ ورود كلمة ﴿ وَلَا ﴾ بين هذه المسائل المتقابلة ، يضع

المقارنة وعدمَ الاستواء بين درجات كلٍّ مسألة منها ، بغض النظر عن تقابلها مع المسألة المقابلة لها ..

بينما صفتا الأعمى والبصير ، كصفتين ترتبطان بالشخص ذاته في لحظة ما ، فلا يُوجَد درجات لهاتين الصفتين ، فالشخص الموصوف في لحظةٍ ما ، له درجة محدّدة من العمى والبصر .. فالمقابلة هنا هي فقط بين هاتين الكلمتين ، وليست بين العمى والبصر كمسألتين مجرّدتين ، لذلك لا نرى ورود كلمة ﴿ وَلا ﴾ بين كلمتي الأعمى والبصير ..

والصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ تُقابل مثلَ المؤمن والكافر ، وحالهما ، ومآلهما ، فجميع المسائل المتقابلة في المثل والحال والمآل معطوفة على العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ .. فلا شيء يستوي بين مثل المؤمن والكافر ، ولا حالهما ، ولا مآلهما ..

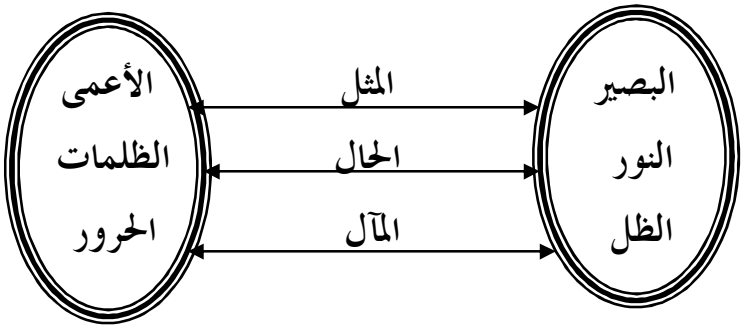

بعد ذلك تأتي مقابلة جديدة بين صفتين جديدتين ، كلّ صفة منهما تقابل جميع المسائل المناظرة لها في المقابلات السابقة .. فمسائل البصير والنور والظلّ ترتبط بصفة الأحياء ، ومسائل الأعمى والظلمات والحرور ترتبط بصفة الأموات .. فالصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾ تُقابل الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى

﴿ ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .. وتكرار العبارة ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ هو لإظهار هذه المقابلة ..

ففي حين أنَّ المقابلة الأولى هي بين الكافر والمؤمن كمثل (الأعمى والبصير) ، وكحال (الظلمات والنور) ، وكمآل (الظلّ والحرور) ، نرى أنَّ المقابلة الثانية هي في حقيقة المؤمنين والكفّار ، من زاوية علم الله تعالى المطلق لاستجابة الذات البشريّة لنور الحق ، ولحقيقة انتمائها إمّا لعالم الأحياء المستجيبين لنداء الحق ، وهذا ما تعبّر عنه في المقابلة الأولى الكلمات (البصير – النور – الظل) ، وإمّا لعالم الأموات وهذا ما تعبّر عنه في المقابلة الأولى الكلمات (الأعمى – الظلمات – الحرور) ..

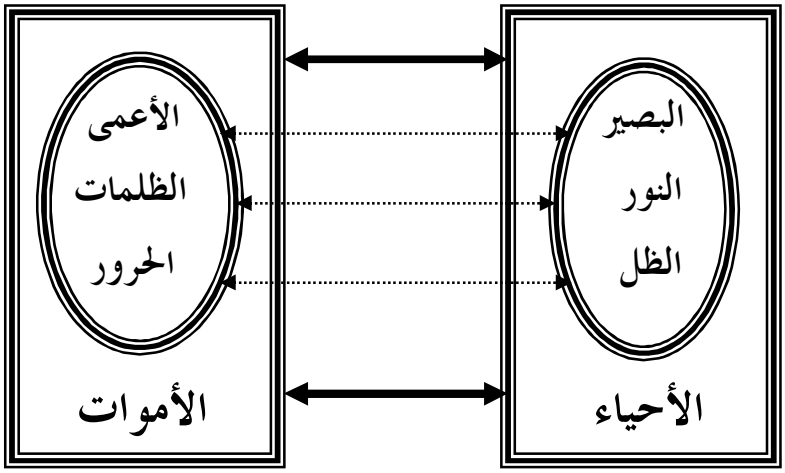

.. لذلك نرى [بناءً على هذه المقابلة المرتبطة بعلم الله تعالى المطلق والكاشف لحقيقة انتماء الإنسان لساحة الأحياء أو الأموات] أنَّ المنتمين لساحة الأحياء يسمعونه نداء الحق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ ، وأنَّ المنتمين لساحة الأموات لن يسمعوا نداء الحق ، ولن يستجيبوا له ، كسكان القبور المنقطعين عن الحياة ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن

فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ..... ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ ..

إنَّ إعجاز القرآن الكريم هو في المعنى المطلق الذي يحمله ، وليس في مجرّد اللفظ ، فالتقديم والتأخير لا يكون إلاَّ لحكمة مطلقة يريدها الله تعالى .. لذلك فتقديم الأشرف في مقابلة الظلّ والحرور ، وفي مقابلة الأحياء والأموات ، وتأخيره في مقابلة الأعمى والبصير ، وفي مقابلة الظلمات والنور ، هو لحكمة مُرادة ، وليس لمجرّد تناغم أواخر الآيات وتآخيها كما يتوهّم الكثيرون ..

في المقابلتين الأولى والثانية ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ تمَّ التقديم بناءً على الترتيب الزمني لمسألتي الكفر والإيمان بالنسبة لرسالة الإسلام ، فطريق العمى والظلمات سبق ظهور نور الإسلام الذي حوّله إلى طريق البصيرة والنور ، فالصورة القرآنيّة التي تبيّنها هاتان الآيتان تُقابل بين طريق الظلام الذي كان يتخبّطُ به الناس كالعميان قبل مجيء الإسلام ، وبين طريق النور الذي سلكه الناس على بصيرة بعد مجيء الإسلام .. فوجود الكفّار الضالّين السائرين في طريق الظلام ، هو قبل المؤمنين المهتدين بنور الهداية ..

وتتابع الآيات الكريمة ترتيب وقوع هذه المسائل .. فبعد مجيء نور الإسلام ، تُصوِّرُ لنا هذه الآياتُ الكريمة مآل البشر وماهيّةَ انتماءاتهم في تفاعلهم مع هذا النور العظيم ، وحال تعلّقهم برحمة الله تعالى التي تسبق غضبه .. فما يتعلّق برحمة الله تعالى يسبق ما يتعلّق بغضبه .. ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾ ..

إنَّ مقابلة الأعمى بالبصير والظلّ بالحرور هي مقابلة الجنس بالجنس ، ولو تمّت هاتان المقابلتان – في هذا النصّ الذي بين أيدينا – بصيغ جماعة أفراد بجماعة أفراد ، لَمَا تمّ هذا الإطلاق في الصياغة ، لأنّه في هذه الحالة سيكون هناك شيءٌ من النسبيّة ، فلربما

يُوجَدُ فردٌ من أفراد أحد الجنسين مساوٍ لفردٍ من الجنس الآخر ، فقد يصل الأعمى إلى حقيقة لا يصل إليها البصير ، وقد يضلُّ البصير عن حقيقة لم يضلّ عنها الأعمى .. وهكذا نرى أنَّ مطلق المقابلة يقتضي مقابلة الجنس بالجنس ، وليس مقابلة أفراد بأفراد ..

ومقابلة الأحياء بالأموات هي أيضاً مقابلة مطلقة ، فالأحياء لا يساوون الأموات سواءٌ كانت المقابلة مقابلة الجنس بالجنس أم مقابلة أفراد بأفراد ، فلا يُوجد حيٌّ إيمانيّاً من الممكن أن يساوي ميّتاً إيمانيّاً ، ولا يُوجَد ميّتٌ إيمانيّاً من الممكن أن يساوي حيّاً إيمانيّاً .. وقد بيّنت في كتبي الأخرى كيف أنَّ كلمة ﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تعني الموت الإيماني ، سواء لمن هم على قيد الحياة ، أم لمن غادروا الدنيا .. فالذين غادروا الدنيا يصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بكلمة ﴿ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ سواء كانوا مؤمنين أم كانوا كافرين ..

أمّا مقابلة الظلمات (بصيغة الجمع) بالنور (بصيغة المفرد) فمردّها أن طرق البشر الوضعيّة البعيدة عن منهج الله تعالى كثيرة ومتعدّدة ، لذلك .. تصفها كلمة : ﴿ ٱلظُّلُمَٰتُ ﴾ التي تأتي دائماً في كتاب الله تعالى بصيغة الجمع .. أمّا طريق الحقّ ونور الهداية الذي يأمر الله تعالى باتّباعه ، فهو سبيلٌ واحدٌ لا يتجزّأ ولا يتعدّد ، لذلك تصفه كلمة ﴿ ٱلنُّورُ ﴾ التي تأتي دائماً في كتاب الله تعالى بصيغة المفرد ..

وهكذا نرى أنَّ التصوير القرآني مطلق ، فلا حرف يزيد أو ينقص عن المعنى المطلق الذي يريده الله تعالى ، ولا صيغة من صيغ تصريف الكلمات في العبارة القرآنيّة تختلف عن الصياغة المطلقة لهذه العبارة القرآنيّة ، ونرى أيضاً أنَّ تقديم الكلمات وتأخيرَها في العبارة القرآنيّة هو لحكمة مطلقة يريدها الله تعالى ، وليس مصادفةً ، وليس من أجل تآخي أواخر الكلمات ، وليس لأيِّ سببٍ آخر كما هو حال كلام البشر ..

❁ ❁ ❁

.. ولننظر في الآيتين الكريمتين التاليتين ..

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة : ١١٠]

.. إنّنا نرى ما يلي :

١ – في الآية الأولى نرى النفخَ في الطين : ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ ، فكلمة ﴿ فِيهِ ﴾ واضحةٌ جليّةٌ في تعلّق النفخ بالطين .. بينما في الآية الثانية نرى النفخَ في الهيئة : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ ﴾ ، فكلمة ﴿ فِيهَا ﴾ واضحةٌ جليّةٌ في تعلّق النفخ بالهيئة ..

٢ – في الآية الأولى نرى أنَّ هيئة الطير التي تُخلَق من الطين لا تُتْبَع بالإذن من الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .. بينما في الآية الثانية نراها تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ ، فكلمة ﴿ بِإِذْنِى ﴾ واضحة جليّة في ذلك ..

٣ – في الآية الأولى نرى أنَّ إبراء الأكمه والأبرص لا يُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ .. بينما في الآية الثانية نرى هذه المسألة تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ ..

٤ – في الآية الأولى نرى إحياء الموتى : ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .. بينما في الآية الثانية نرى إخراج الموتى : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ ..

.. فما الحكمة من كلِّ ذلك ؟!!! ..

هاتان الآيتان الكريمتان تُصوِّران المسائل المحمولة بهما من زاويتين مختلفتين .. فالآية الأولى تُصوِّرُ هذه المسائل من الزاوية التي يُخاطبُ بها عيسى بني إسرائيل ، فمطلع الآية الكريمة يُبيّن ذلك : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، ومن هذا المنظار الذي ينظر منه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، فإنَّ الموتى الذين أحياهم عيسى عليه السلام ، قد انتقلوا من حالة الموت إلى حالة الحياة ، وهذا ما تصوّره العبارة القرآنيّة في هذه الآية ﴿ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .. فما رآه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل هو أنَّ هناك موتى تمّ إحياؤهم ..

ولذلك .. ومن هذه الزاوية المتعلّقة بالمنظار الذي ينظر منه عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، نرى تصويراً لمسائل لا تُصوَّر في الآية الثانية ، فالعبارة القرآنيّة : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ .. فالأكل والادّخار في البيوت مسائل يعلمها بنو إسرائيل ويشاهدونها حسيّاً ، وهي بذلك تتناسب مع المنظار الذي تُلقي الآية

من خلاله الضوء على المسائل المحمولة بها .. ولذلك تُختم الآية الكريمة بالعبارة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ..

بينما الآيةُ الثانية تُصوِّر المسائل المحمولة فيها من زاوية علم الله تعالى المطلق بحقيقة هذه المسائل ، وليس من الزاوية التي ينظر منها عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل ، كما هو حال الآية الأولى .. فمن زاوية حقيقة المسائل المُصَوَّرة بهذه الآية الكريمة فإنَّ إحياء الموتى من البشر هو – في حقيقته – إخراج الأنفس من عالمها عالم البرزخ وعودتها إلى الأجساد الدنيويّة ، فهذه الأنفس هي موجودة ، وما حصل أنَّها أُخرجت من عالمِها إلى عالم الدنيا لتدخل في أجسادٍ دنيويّة .. وهذا ما تنطق به العبارة القرآنيّة ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ ..

ولذلك نرى في هذه الآية الكريمة تصويراً لمسائل لا تُصوَّر في الآية الأولى ، فالعبارة القرآنيّة : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، تُبيّنُ مسائل لا تُرى إلاّ من منظار علم الله تعالى الكاشف ، ولذلك تُصوَّر هذه المسائل في الآية الثانية ، ولا تُصوَّر في الآية الأولى .. وكذلك الأمر في العبارات القرآنيّة : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ ، فتأييد الله تعالى لعيسى عليه السلام بروح القدس ، وتكليمه للناس في المهد وكهلاً ، وتعليمه له الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، كُلُّ ذلك مسائل تتعلّق بعلم الله تعالى المُطلق وليس بالمنظار الذي ينظر منه البشر .. ولذلك تُذكر هذه المسائل في الآية الثانية ، ولا تُذكر في الآية الأولى ..

والقضيّة ذاتها في مسألة إبراء الأكمه والأبرص ، فمن الزاوية التي ينظر منها عيسى عليه السلام وبنو إسرائيل فإنَّ إبراء الأكمه والأبرص مسألة حسيّة مُشاهدة تتشابه ظاهريّاً مع إبراء الكثير من الأمراض ، ولذلك لم تُتْبَع بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ .. بينما هذه المسألة ذاتها من المنظار الذي يعلم الله تعالى به هذه الأشياء علماً مطلقاً ، فإنَّ إبراء الأكمه والأبرص لا يكون إلاّ بإذنٍ من الله تعالى ، ولذلك تُتْبَع هذه المسألة قي الآية الثانية بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ ﴾ ..

ومسألة الطير الذي كان عيسى عليه السلام يخلقه من الطين ، فهي مسألةٌ تُصوَّر في هاتين الآيتين الكريمتين تصويراً مُطلقاً يُبيّنُ مراحل هذه المسألة من بدايتها إلى نهايتها .. فهذه المسألة تمّت وفق المراحل التالية :

١ – المرحلة الأولى هي خَلْق هيئة للطير من الطين ، وهي مرحلة شبيهة بما يصنعه البشر من تماثيل ، وهذه مرحلة يستطيع البشر فعلها ، ولذلك نراها في الآية الأولى متعلّقة بالطين ، فهي مرحلة ما زال الطين فيها طيناً .. ولذلك نرى عظمةَ الصياغة القرآنيّة بأنْ ترد هذه المرحلة في الآية الأولى ، ولا تُتْبَع هذه المرحلة بالإذن من الله تعالى : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ .. فهذه مرحلة مُشاهدة من البشر ، ويستطيعُ البشر فعلها ، ولذلك يُناسب العبارات المصوّرة لها أن ترد في الآية الأولى ، وألاّ تُتْبَع بالإذن من الله تعالى .. والدليل على أنَّ هذه المرحلة لا تتجاوز الحالة الطينيّة إلى الحالة الحيّة هو كلمة ﴿ فِيهِ ﴾ التي تتعلّق بالطين لا بالهيئة : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ ..

٢ – المرحلة الثانية هي تحويل الهيئة الطينيّة التي هي المرحلة الأولى ، إلى هيئة حيّة ، بمعنى تحوّل مادّة الطين إلى مادّة حيّة ، وهذا يتعلّقُ بعلم الله تعالى وبمنظاره الذي لا يرى منه البشر ذلك ، وهذا ما لا يستطيع البشر فعله ، ولذلك نرى هذه المرحلة مُصوَّرةً في الآية الثانية وَمَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ ، والدليل على أنَّ المسألة تتعلّقُ بالمرحلة الثانية التي تتحوّل فيها الهيئة الطينيّة إلى هيئة حيّة هو كلمة ﴿ فِيهَا ﴾ التي تعود للهيئة ، لا للطين : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ ..

٣ – المرحلة الثالثة هي تحويل الهيئة الحيّة من مادّة حيّة إلى طيرٍ يطير ويتحرّك ، وهذه مرحلة لها وجهان :

هناك وجه حسيٍّ يراه البشر ويتفاعلون معه ، حيث يرون طيناً تحوّل إلى طيرٍ يطير ، ولذلك تُذكَرُ هذه المرحلة (الثالثة) في الآية الأولى مَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى ، ولكن بعد المرحلة الأولى مباشرةً : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ..

والوجه الثاني لهذه المرحلة (الثالثة) هو وجهٌ لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، ويتعلّق بالسرِّ الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، والذي تحوّلت به الهيئة الحيّة إلى طيرٍ يطير ويتحرّك ، حيث لا يرى البشر ولا يعلمون هذا السر ، ولذلك تُذكَرُ هذه المرحلة (الثالثة) في الآية الثانية مَتْبوعةً بالإذن من الله تعالى ، ولكن بعد المرحلة الثانية مباشرةً : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ ..

أعتقد أنّنا أصبحنا نرى – أكثر – حقيقةَ مُطلق الصياغة القرآنيّة ، وكيف أنَّ الحروف والكلمات في الجملة القرآنيّة مُرتّبة ترتيباً مُطلقاً ، يتعلّق بعلم الله تعالى المُطلَق وبقدرته المطلقة على الصياغة ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى التقديم والتأخير في مسألتي الشفاعة والعدل في الآيتين التاليتين ..

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]

فلماذا قُدِّمَت الشفاعة على العدل في الآية الأولى وأُخِّرت في الثانية ؟!!! .. ولماذا ارتبطت الشفاعة بعدم القبول في الآية الأولى وبعدم النفع في الثانية ؟!!! .. ولماذا ارتبط العدل بعدم الأخذ في الآية الأولى وبعدم القبول في الثانية ؟!!! .. ولماذا اُستخدمت كلمة ﴿ عَدۡلٞ ﴾ دون كلمة ﴿ فِدۡيَةٞ ﴾ كما هو في الآية الكريمة : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٥] ؟!!! ..

العدل – كما رأينا – هو تسوية الأمور وإعادتها إلى سويّتها .. ﴿ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ ﴾ .. وهذا يكون قبل فوات الأوان ، أي يكون في المرحلة التي تمكن فيها تسوية الأمور .. ولذلك فالعدل الذي هو بمعنى الفداء نراه في كتاب الله تعالى يتعلّق بالشفاعة ، أي بمرحلة ما قبل الدخول في العذاب

.. وباستثناء الصورتين القرآنيّتين موضوع البحث ، هناك صورة أخرى يرد فيها العدل الذي هو بمعنى الفداء ..

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٠]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ﴾ تُصوِّرُ لنا مرحلة الشفاعة التي هي قبل الدخول إلى النار ..

بينما الفدية نراها في كتاب الله تعالى تُصوِّرُ مرحلةَ ما بعد الشفاعة ، أي تكونُ في المرحلة التي لا تمكن فيها هو تسوية الأمور ، حيث الدخول في العذاب أمرٌ واقع لا مفرّ منه .. وهذه هي الآيات الكريمة المصوّرة لذلك ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [المائدة : ٣٦]

﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤]

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد : ١٨]

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧]

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٣ – ١٥]

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج : ١١ – ١٤]

وبما أنَّ الصورتين القرآنيّتين (موضوع بحثنا) تتعلّقان بمرحلة لا تتجاوز الشفاعة ، فمن مقتضيات التصوير القرآني المطلق أن ترد صيغة العدل دون صيغة الفدية ..

ولو نظرنا إلى هذه المسألة من زاوية ترتيب وقوعها من المقدّمات باتّجاه النتائج ، لرأيناها تُصوَّرُ في القرآن الكريم تصويراً مطلقاً مطابقاً تماماً لهذا الترتيب ..

إنَّ نفي الشفاعة أهمّ من نفي قبولها ، فنفي انتفاع النفس من الشفاعة يستلزم نفي قبولها ، أمّا نفي قبول الشفاعة من النفس فلا ينفي انتفاعها من طرق أخرى .. ولذلك نرى أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ في الآية الأولى ، تنفي قبول الشفاعة من النفس ، ولا تنفي انتفاع النفس من شفيعٍ آخر غير هذه النفس ، ونراها ترد قبل نفي أخذ العدل من النفس ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ ..

بينما الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ في الآية الثانية ، نراها تنفي انتفاع النفس من أيِّ طريقٍ من طرق الشفاعة ، فهذه الصورة تنقل لنا مسألةً أعظم وأعمّ من المسألة التي تنقلها لنا الصورة الأولى ، ولذلك نراها ترد بعد نفي قبول العدل من النفس ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ ..

إنَّ قبول الشيء يسبق أخذه ، وأخذه يسبق الانتفاع به .. فالمسألة مكوَّنة من ثلاث مراحل (قبول – أخذ – نفع) ، ولو عدنا إلى أيٍّ من الآيتين الكريمتين ، لرأينا أنَّ ترتيب ورود المسائل وترتيب اقترانها بالقبول والأخذ والنفع هو ترتيبٌ مطلق يتبع للتصوير القرآني المطلق ..

ففي الآية الأولى نرى أنَّ عدم القبول يسبق عدم الأخذ ، فعدم قبول الشفاعة من النفس أسهل عليها من عدم أخذ الفدية منها ، لذلك نرى أنَّ الترتيب الوارد في الآية الكريمة مُطابقٌ تماماً لذلك : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ .. وفي الآية الثانية نرى أنَّ عدمَ القبول يسبق عدمَ النفع ، فعدم قبول الفدية من النفس أسهل عليها من عدم انتفاعها من أيِّ طريقٍ من طرق الشفاعة والخلاص .. لذلك نرى أنَّ الترتيب الوارد في الآية الكريمة مطابقٌ تماماً لذلك : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ ..

ولو نظرنا إلى المسألة من زاوية ارتباط مسائل الشفاعة والعدل بالنفس الشافعة التي تقوم بعملية الشفع للنفس طالبة الشفاعة (صاحبة الذنوب) لرأينا عمقاً آخر ..

في الصورة الأولى ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ .. يعود الضمير في كلمة ﴿ مِنْهَا ﴾ إلى النفس الشافعة ومقدّمة الفدية ، ولا يعود إلى النفس المشفوع لها (صاحبة الذنوب) .. فارتباط النفس الشافعة في مسألتي الشفاعة والعدل هو القبول والأخذ وليس النفع ، فالنفع يعود إلى النفس المشفوع لها (إنْ قُبِلَت هذه الشفاعة) ، ولذلك نرى في هذه الصورة القرآنيّة ورود صيغ عدم القبول وعدم الأخذ ، ونرى أنَّ الشفاعة فيها مُقدَّمة على إعطاء الفدية ، فالمسألةُ تقومُ بها نفسٌ من أجلِ نفسٍ أُخرى ، ولذلك تبدأ الصورة القرآنيّة بالشفاعة أوّلاً ..

بينما في الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ ، يعود الضمير في كلمتي : [﴿ مِنْهَا ﴾ ، ﴿ تَنفَعُهَا ﴾] إلى النفس المشفوع لها (صاحبة الذنوب) ، فارتباط مسألتي العدل والشفاعة بالنفس المشفوع لها – إن قُبِلا – هو القبول والنفع ، ونرى أنَّ الفدية – في هذه الصورة القرآنيّة – مُقَدَّمة على الشفاعة ، فالمسألة تقوم بها النفس من أجل ذاتها ، ولذلك تبدأ الصورة القرآنيّة بالفدية أوّلاً ..

❁ ❁ ❁

.. لننظر إلى تقديم كلمة ﴿ رَجُلٌ ﴾ وتأخيرِها عن العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠]

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠]

فما الحكمة من هذا التقديم والتأخير ؟ .. للإجابة على ذلك لا بدّ من إدراك الخصوصيّة التي تميّز كلّ قصّة من القصّتين المحيطتين بهاتين الصورتين القرآنيّتين ..

القصّة الأولى قصّةٌ فرديّةٌ حدثت مع موسى عليه السلام بعد أن وكزَ رجلاً فقضى عليه ، أمَّا القصّة الثانية فهي قصّة رسالة إيمانيّة من الله تعالى لأهل المدينة كافّة .. وورود العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يشيرُ إلى انتشار الأمر في المدينة .. فبالنسبة لقصّةِ موسى عليه السلام فقد وصل الأمر إلى ملأ فرعون ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .. وبالنسبة للقصّة الثانية فإنَّ الأمر قد انتشر في كلِّ المدينة ، ولذلك خاطبهم الرجل جميعهم بصيغةٍ عامّة ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ..

في القصّة الثانية نرى أنَّ الأمر يهمّ جميع أفراد المدينة ، وهو أهمّ من الموقف الفردي الشخصي للرجل والمرسلين .. هذه الحقيقة يصوّرها لنا القرآن الكريم عبر تقديم العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ على العبارة القرآنيّة ﴿ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ .. بينما لم يتمّ ذلك في القصّة الأولى لأنَّ المسألة فرديّة تهمّ موسى عليه السلام والرجل الذي أخبره أكثر ممّا تهمّ أهل المدينة .. وهكذا نرى أنَّ تقديمَ العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في القصّة الثانية هو لإظهار أهميّة الأمر لجميع أفراد المدينة بما فيهم الرجل الذي جاء يسعى .. بينما تأخيرها في القصّة الأولى هو لإظهار أهميّة الأمر للرجل ولموسى عليه السلام ..

وورود العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ بين كلمة ﴿ رَجُلٌ ﴾ وكلمة ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ في الصورة الأولى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ ، هو للدلالة

على أنَّ السعي مكاني ، امتدَّ من أقصى المدينة إلى المكان الذي يُوجد فيه موسى عليه السلام ، فالمسألة فرديّة امتدّت من أقصى المدينة ، بمعنى أنَّ هذا الرجل كان موجوداً في أقصى المدينة ، ومن هناك جاء يسعى ليخبر موسى عليه السلام بأنَّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه ..

أمّا ورود العبارة القرآنيّة ﴿ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ خلف العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في الصورة الثانية : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ ، فهو للدلالة على السعي الإيماني إضافة لسعيه المكاني ، فهو أثناء سعيه المكاني كان يسعى إيمانيّاً عبر دعوته لاتّباع المُرسَلين الذي أُرسلوا إلى أهل المدينة ، فالمسألة المكانيّة ﴿ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ سبقتها مسألة سعيٍّ إيمانيٍّ أدّى إلى هذا السعي المكاني ..

وهكذا نرى أنّ تقديمَ الكلمات القرآنيّة وتأخيرَها هو لحكمة مطلقة ، ترتبط بصفات الله تعالى المطلقة ..

❁ ❁ ❁

ولننظر إلى تقديم المخاطب والغائب وتأخيرهما بالنسبة لمسألة الرزق في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ [الإسراء : ٣١]

في الصورة الأولى نرى أنَّ الإملاق مسألةٌ واقعة ، ويعاني منها الآباء والأبناء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ ، ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يُخاطب الآباء مقدِّماً رزقهم على رزق أولادهم ، فهم بحاجة للرزق كأولادهم ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ .. أمَّا في الصورة الثانية فنرى أنَّ الإملاق مسألةٌ لم تقع بعد ، وإنّما يخشى الآباء وقوعها

بسبب أولادهم ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ ، ولذلك يخاطبهم الله تعالى مقدِّماً رزق أولادهم على رزقهم ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ ، لأنَّ ما يخشونه هو رزق أولادهم في المستقبل قبل رزقهم هم ..

❁ ❁ ❁

لقد وردت العبارة القرآنيّة ﴿ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ في كتاب الله تعالى ثلاث مرّات ، واحدة منها مُؤكَّدة باللام .. ولو نظرنا في هذه الصور القرآنيّة ضمن سياقها المحيط بها ، لرأينا أنَّ إضافةَ حرف اللام التوكيدي هو لحكمة إلهيّة من أجل تمييز الصبر الوارد في الصورة المُؤكَّدة بحرف اللام ..

الصورتان القرآنيّتان غير المؤكَّدتين بحرف اللام نراهما تنقلان لنا صور التقوى والصبر على ابتلاء الله تعالى وعلى المصائب التي تصيب الإنسان ..

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦]

﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧]

فالابتلاء والمصائب المُرادة من الله تعالى لامتحان الإنسان ، وكذلك الصبر على تقوى الله تعالى وعبادته ، بحاجة إلى صبر لاجتياز الامتحان ، وهذا الصبر هو من عزم الأمور ..

.. أمّا الصورة المؤكَّدة بحرف اللام ، نراها تنقل لنا صورة الصبر المرتبط بالغفران على ظلم الناس وبغيهم ..

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٠ – ٤٣]

فالصبر على ظلم الناس وبغيهم ، وغفران ذلك لهم ، بحاجة إلى قدْرٍ أكبر من التحمّل والصبر ، وإلى طاقة إيمانيّة أكبر ، وذلك مقارنةً مع الصبر على المصائب الواردة في الصورتين السابقتين غير المؤكّدتين باللام والتي لا يُطلب فيهما الغفران ..

❁ ❁ ❁

ومسألة اللام التوكيديّة هذه ، وعمق التصوير المرتبط بها ، نراه – أيضاً – في اقترانها بإتيان الساعة .. لقد وردت كلمة ﴿ ءَاتِيَةٌ ﴾ في القرآن الكريم أربع مرّات ، أتت فيها مقترنة بكلمة الساعة وبهذه الصياغة حصراً .. وقد أتت مرّتين مؤكّدةً باللام ، ومرّتين غير مؤكّدة بهذه اللام .. ولو نظرنا في الصورتين القرآنيّتين المحيطتين بالعبارة القرآنيّة غير المؤكّدة باللام ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ ، لرأيناهما إخباراً من الله تعالى بإتيان الساعة ، ليعلم البشر ذلك ، فالمُراد هو العلم بإتيان الساعة ..

﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه : ١٣ – ١٦]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج : ٦ – ٧]

ولو نظرنا في الصورتين القرآنيّتين المحيطتين بالعبارة المؤكَّدة باللام ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴾ لرأيناهما تصوِّران – إضافة إلى الإخبار بإتيان الساعة – طلبَ الصفح الجميل ، والتذكّر بعدم استواء الأعمى والبصير والصالحات والسيئات ، والعلم والعمل بذلك .. فاليقين الكامل بإتيان الساعة ، وما يعنيه من ثواب وعقاب ، هو مقدّمة وحافز للصفح الجميل ولعمل الصالحات وللابتعاد عن السيئات ..

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٨٥ – ٨٦]

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر : ٥٨ – ٥٩]

إنَّ الإخبار بإتيان الساعة هنا هو مقدّمة مؤكَّدة تقتضي – لمن يؤمن بها – نتيجة مُرادة هي عمل الخير من صفحٍ وابتعادٍ عن السيئات وعن الضلالة .. فاليقين بهذه المقدّمة المؤكَّدة ، يدفع الإنسان إلى النتيجة الخيّرة المُرادة ، لذلك نرى أنَّ العبارة القرآنيّة تأتي مرتبطة باللام المؤكِّدة ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مثالاً آخر .. ما الحكمة من استبدال الواو فاءً ، بين الصورتين التاليتين ..

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ [البقرة : ٣٥]

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ [الأعراف : ١٩]

للإجابة على هذا السؤال لا بدَّ من النظر في الصور القرآنيّة المحيطة بهاتين العبارتين ..

الصورة الثانية هي خطابٌ من الله تعالى لآدم عليه السلام من أجل دخول الجنّة ، فآدم أثناء خطابه بهذه الصورة القرآنيّة لم يكن داخلاً الجنّة بعد ..

﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨ – ١٩]

ودليل ذلك أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ معطوفة على العبارة القرآنيّة ﴿ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ ﴾ .. فالأمر الإلهيّ بإخراج إبليس مذؤوماً مدحوراً وبدخول آدم وزوجه الجنّة ، هما أمران مرتبطان بكلمة ﴿ قَالَ ﴾ في بداية هذه الصورة القرآنيّة ..

إذاً .. آدم (في هذه الصورة القرآنيّة) لم يدخل الجنّة بعد ، فكلمة ﴿ ٱسۡكُنۡ ﴾ تدور في إطار معنى الدخول من أجل السكن ، والدخول يسبق الأكل من الجنّة ، فالأكل يكون بعد الانتهاء من الدخول .. ولذلك نرى أنَّ الصورة القرآنيّة هي ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ ، فالأكل يكون بعد الفراغ من الدخول ، ولذلك يأتي مقترناً بالفاء كما نرى ﴿ فَكُلَا ﴾ .. ونرى في هذه الصورة أنَّ الأكل هو : ﴿ مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ ، فالجنّةُ لم يدخلها آدمُ وزوجه بعد ..

أمّا الصورة القرآنيّة الأولى فهي خطابٌ من الله تعالى لآدم عليه السلام بعد دخوله الجنّة .. ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .. فكلمة ﴿ ٱسۡكُنۡ ﴾ هنا تدور دلالاتها في إطار معنى الإقامة ، ولذلك نرى أنَّ مسألة الأكل تُعطف على الإقامة ،

وليست متأخّرة عنها كما هو الحال في الصورة السابقة .. ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ .. ونرى أيضاً أنَّ الأكل هو ﴿ مِنْهَا ﴾ فآدم وزوجه هما – هنا – في الجنّة ..

❁ ❁ ❁

وهذه الحكمة الكامنة وراء استبدال حرف الفاء بالواو ، حيث يدلُّ حرف الفاء على خطاب الدخول ، ويدلّ حرف الواو على خطاب الإقامة .. هذه الحكمة نراها جليّةً في استبدال الواو فاءً ما بين الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٥٨]

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦١]

.. من الواضح أنَّ الخطاب في الصورة الأولى تمَّ قبل الدخول ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ، ولذلك جاء الأكل متأخّراً عن الدخول ، ولذلك نرى اقتران الأكل بالفاء ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ .. بينما في الصورة الثانية نرى أنَّ الخطاب هو خطاب للإقامة والسكن ﴿ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ، ولذلك نرى أنَّ الأكل مقترنٌ بالواو ، فالأكل معطوفٌ على الإقامة والسكن وليس متأخّراً عنه ..

ونرى – أيضاً – أنّه في خطاب الدخول [حيث تُصوَّر المسألة من الخارج ، والدخول لم يتمّ بعد] تمّ تقديم دخول الباب سجّداً على قولهم حطّة ، فمن هذا المنظار

الخارجي للمسألة يكون دخول الباب سجّداً أقرب إليهم من قولهم حطّة ، فهذا الدخول يتقدّم على قولهم حطّة : ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ ..

بينما في خطاب الإقامة والسكن [حيث تُصوَّر المسألة من الداخل ، وبعد الدخول] تمّ تقديم قولهم حطّة على دخولهم الباب سجّداً ، فمن هذا المنظار الداخلي للمسألة يكون قولهم حطّة أقرب إليهم من دخولهم الباب سجّداً ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ ..

❁ ❁ ❁

ولنأخذ مثالاً آخر .. ما الحكمة من استبدال الفاء بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في الصورتين التاليتين ..

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا ﴾ [الكهف : ٥٧]

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ ﴾ [السجدة : ٢٢]

.. في الصورة الأولى نرى أنَّ الإعراض عن آيات الله تعالى يتبع مباشرةً التذكير بها ، فالمُعرِض عن آيات الله تعالى – هنا – لا يفقه حُكمَ هذه الآيات ومُرادها ، ولا يعي نداء الحقّ الذي تحمله هذه الآيات ، وبالتالي لن يهتدي إلى نور هذه الآيات ، وهذا ما يُبيّنه حرف الفاء ، وبقية الآية الكريمة ..

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [الكهف : ٥٧]

أمَّا الصورة الثانية فنرى فيها الإعراض عن آيات الله تعالى لا يتبع التذكير بها مباشرة ، إنّما هو إعراض عن تريّث وسماع لهذه الآيات ، وهذا ما تبيّنه كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ وبقيّة الآية الكريمة ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢]

ولذلك يصفهم الله تعالى بالمجرمين ، لأنّهم يُعرضون عن آيات الله تعالى عن سابق إصرار وعلم بحقيقة ما يُعرضون عنه ..

.. إذاً .. كلُّ صورة من هاتين الصورتين تُصوِّرُ لنا صنفاً من البشر المُعرضين عن آيات الله تعالى ، واستبدال حرف الفاء بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ بين هاتين الصورتين هو دليل ذلك كما بيّنا ..

وهكذا نرى أنَّ حذف حرف ، أو زيادته ، أو تبديله ، أو حذف كلمة ، أو زيادتها ، أو تبديلها ، ما بين الصور القرآنيّة ، هو لحكمة إلهيّة مُطلقة تتعلّق بصفات الله تعالى المطلقة .. ومردّ ذلك – كما رأينا في الفصل الأوّل – أنَّ القرآن الكريم قول الله تعالى ..